

عندما تصبح الآلة شريكًا في التفكير

جمال مراد قيس

2026-03-09

لم تعد الثورة التقنية التي يشهدها العالم اليوم مجرد تطور في الأدوات الرقمية أو تحسين في قدرات الحوسبة، بل أصبحت تحولًا عميقًا في طبيعة العلاقة بين الإنسان والمعرفة. طوال عقود كان الحاسوب آلة تنفذ أوامر محددة بدقة، أما اليوم فقد بدأت تظهر فئة جديدة من الأنظمة التقنية قادرة على المساهمة في عمليات التفكير والتحليل وصياغة الأفكار. هذه النقلة النوعية هي ما يدفع كثيرًا من الباحثين إلى وصف المرحلة الحالية بأنها بداية عصر الذكاء الاصطناعي المعرفي.

التحول هنا لا يتعلق فقط بقدرة الحواسيب على معالجة البيانات، بل بقدرتها على توليد المعرفة. فأنظمة الذكاء الاصطناعي الحديثة أصبحت قادرة على قراءة ملايين الوثائق، تحليل الأنماط بينها، ثم إنتاج نصوص أو أفكار أو حلول جديدة لم تكن موجودة بشكل مباشر في البيانات الأصلية. وهذا ما يفتح الباب أمام سؤال جديد في تاريخ التكنولوجيا: هل يمكن للآلة أن تصبح شريكًا في التفكير؟

من الحوسبة التقليدية إلى النماذج التأسيسية

لفهم التحول الذي يحدث اليوم، من المفيد النظر إلى تطور الحوسبة خلال العقود الماضية. في منتصف القرن العشرين كانت الحواسيب الأولى مصممة لتنفيذ عمليات حسابية معقدة، خاصة في المجالات العسكرية والعلمية. ثم جاءت مرحلة الحواسيب الشخصية والإنترنت، حيث أصبحت الحواسيب أدوات لإدارة المعلومات والتواصل الرقمي.

لكن في العقد الأخير ظهرت فئة جديدة من تقنيات الذكاء الاصطناعي تعتمد على ما يسمى النماذج التأسيسية (Foundation Models). هذه النماذج هي شبكات عصبية ضخمة يتم تدريبها على كميات هائلة من البيانات النصية والصورية والصوتية. والنتيجة هي أن هذه الأنظمة لا تتعلم مهمة واحدة فقط، بل تكتسب قدرة عامة على التعامل مع اللغة والمعلومات.

فعلى سبيل المثال، يمكن لنموذج لغوي كبير أن يكتب مقالاً، يترجم نصًا، يلخص تقريرًا علميًا، أو يقترح أفكارًا بحثية. وهذه القدرة المتعددة الاستخدامات هي ما جعل الذكاء الاصطناعي ينتقل من كونه أداة متخصصة إلى منصة معرفية عامة.

الذكاء الاصطناعي كطبقة معرفية جديدة

أحد التوصيفات المهمة التي ظهرت في السنوات الأخيرة هو أن الذكاء الاصطناعي أصبح يشكل طبقة معرفية جديدة في البنية الرقمية للعالم. فكما أن الإنترنت أصبح البنية الأساسية للاتصال، فإن الذكاء الاصطناعي قد يصبح البنية الأساسية لإنتاج المعرفة.

في المؤسسات البحثية والشركات التقنية بدأت هذه الأنظمة تلعب دورًا مهمًا في تحليل البيانات واكتشاف الأنماط. وفي مجالات مثل الطب والعلوم الحيوية، تستخدم خوارزميات الذكاء الاصطناعي لتحديد احتمالات الإصابة بالأمراض أو تحليل الصور الطبية بدقة عالية.

كما أن الباحثين في مجالات الفيزياء والكيمياء بدأوا يستخدمون الذكاء الاصطناعي لاكتشاف مواد جديدة أو اقتراح نماذج علمية لم تكن واضحة من قبل. وهذا يعني أن الذكاء الاصطناعي لا يسرع البحث العلمي فقط، بل قد يغير طريقة إجراء البحث نفسه.

تأثير اقتصادي واسع

التأثير المحتمل لهذه التقنيات لا يقتصر على المختبرات العلمية، بل يمتد إلى الاقتصاد العالمي. تشير العديد من الدراسات إلى أن الذكاء الاصطناعي التوليدي قد يضيف تريليونات الدولارات إلى الاقتصاد العالمي خلال السنوات القادمة، من خلال تحسين الإنتاجية وتسريع الابتكار في مختلف القطاعات.

السبب في ذلك أن الذكاء الاصطناعي أصبح قادرًا على دعم ما يسمى العمل المعرفي، أي الأعمال التي تعتمد على التحليل والكتابة والتخطيط واتخاذ القرار. وهذه الأنشطة تمثل جزءًا كبيرًا من الاقتصاد الحديث، خاصة في القطاعات العالية والتقنية والتعليمية.

وعندما تصبح هذه العمليات أسرع وأكثر كفاءة بفضل الأنظمة الذكية، فإن تأثير ذلك ينعكس على الإنتاجية العامة للاقتصاد.

من الأدوات إلى الوكلاء الرقميين

التطور الأحدث في مجال الذكاء الاصطناعي يتمثل في ظهور ما يعرف بـ الذكاء الاصطناعي الوكيل (Agentic AI). هذه الأنظمة لا تكتفي بتقديم

إجابات أو تحليل معلومات، بل يمكنها تنفيذ سلسلة من الخطوات لتحقيق هدف معين.

على سبيل المثال، يمكن لنظام ذكي أن يتلقى مهمة مثل إعداد تقرير بحثي حول موضوع معين. فيبدأ بالبحث عن المصادر، ثم تحليل البيانات، ثم كتابة التقرير وتنظيمه. هذه القدرة على تنفيذ المهام بشكل شبه مستقل تجعل هذه الأنظمة أقرب إلى ما يمكن تسميته وكلاء رقميين للعمل المعرفي. هذا التطور قد يغير طبيعة العمل في العديد من المجالات، حيث قد يعمل الإنسان جنباً إلى جنب مع أنظمة ذكية تساعده في تنفيذ المهام المعقدة.

أسئلة فلسفية جديدة

لكن هذه التطورات التقنية تطرح أيضاً أسئلة فلسفية وثقافية عميقة. فإذا أصبحت الآلات قادرة على المشاركة في التفكير، فكيف سيعاد تعريف الإبداع؟ وهل يمكن اعتبار النصوص أو الأفكار التي تنتجها الأنظمة الذكية شكلاً من أشكال المعرفة؟

هناك أيضاً تساؤلات حول دور الإنسان في عالم تزداد فيه قدرات الآلات. فبدل أن تحل الآلات محل البشر بالكامل، قد يصبح الدور الأساسي للإنسان هو توجيه الأنظمة الذكية وتفسير نتائجها واتخاذ القرارات النهائية.

بهذا المعنى، قد يتحول الذكاء الاصطناعي من منافس للبشر إلى شريك في عملية التفكير.

بداية مرحلة تاريخية جديدة

التاريخ يظهر أن كل ثورة تقنية كبرى تغير طريقة إنتاج المعرفة. الطباعة غيرت انتشار الأفكار، والثورة الصناعية غيرت الاقتصاد والعمل، والإنترنت غير طريقة التواصل.

أما الذكاء الاصطناعي فقد يكون الثورة الأولى التي تغير عملية التفكير نفسها.

إذا تحقق هذا التحول بالكامل، فإننا قد نكون في بداية مرحلة تاريخية يصبح فيها التفكير نشاطاً مشتركاً بين الإنسان والآلة. وفي هذه المرحلة لن يكون السؤال الأساسي هو ما إذا كانت الآلات تستطيع التفكير، بل كيف يمكن للبشر أن يستخدموا هذه القدرة الجديدة لتوسيع حدود المعرفة الإنسانية.

[://:https](https://ai.stanford.edu/) Stanford Human-Centered AI – AI Index Report
McKinsey & Company – The Economic [hai.stanford.edu/ai-index](https://ai.stanford.edu/)
[/https://www.mckinsey.com/capabilities](https://www.mckinsey.com/capabilities) Potential of Generative AI
[quantumblack/our-insights/the-economic-potential-of-generative-ai](https://quantumblack.com/our-insights/the-economic-potential-of-generative-ai/)
MIT <https://www2.deloitte.com> Deloitte – AI Trends and Future Outlook
[://:https](https://www.technologyreview.com/) Technology Review – Artificial Intelligence
www.technologyreview.com/topic/artificial-intelligence

mohamedmouradgamal@gmail.com تواصل مع الكاتب: